

محطات من تاريخ الفلسفة

تمهيد.

لقد سلمنا سابقا بأن ميلاد الفلسفة كان مع بلاد اليونان، غير أن الفلسفة اليونانية لا تعتبر الشكل الوحيد الذي عرفه الفكر الفلسفي الإنساني، بل لقد تعاقبت عن الحضارة اليونانية بعد أفولها حضارات أخرى مثلت هي الأخرى محطات أساسية في تطور الفكر الفلسفي، فما هي هذه المحطات؟ وبماذا اتصفت وتميزت عن بعضها البعض؟

الفلسفة اليونانية:

تبدأ الفلسفة عند اليونان مع الفلاسفة الطبيعيين الأوائل حوالي القرن السابع والسادس قبل الميلاد، وكانت فلسفتهم متجهة نحو تفسير الطبيعة والبحث عن المبدأ الأول، وبعدهم جاء فريق من الفلاسفة أطلق عليهم اسم " السوفسطائيين " في القرن الخامس ق م. وعلى رأسهم جورجياس وبروتاجوراس وهيبياس.

برزت الحركة السوفسطائية كحركة تعليمية لفن الخطابة، إذ عمل رجالها على تعليم تلامذتهم فنون النجاح السياسي مقابل أجور جد مرتفعة، مما لم يساعد العامة من الشباب على أن يتعلموا على أيدي السوفسطائيين، وبالتالي اقتصر هذا النوع من التعليم على أبناء الطبقة الغنية (الأولغارشية) على وجه الخصوص، كما كانوا يروجون لإيديولوجية الديمقراطية بعد فوزهم في موقعة " سلاميس " 480 ق م. التي نشبت بين اليونان والفرس. غير أن أكثر ما يوجد في الكتب والمراجع، أن السوفسطائيين كانوا مفسدين ومحطين للقيم والمثل العليا، لذلك عوملوا معاملة جد سيئة من أبرزها القضاء على الزعماء الكبار للقضاء على الفكر السوفسطائي، ونذكر على سبيل المثال مقتل الخطيب السوفسطائي " هيبياس " إثر مؤامرة سياسية مدبرة من طرف الأوليغارشية، وبروتاجوراس الذي أحرقت كتبه في الساحة العمومية وأُريد قتله لولا هربه.

من بين الأفكار التي كان السوفسطائيين يعملون على ترويجها؛ دعوة الإنسان إلى عدم قبول ما هو موجود من أجل الرقي، كما أن الإنسان المبدع للقوانين والدساتير مطالب باستمرار تنقيحها وتعديلها، وتجاوز الحيف والظلم ونشر المساواة بين المواطنين اليونانيين وغيرهم من الناس، وفي إطار هذه الحقيقة التي عمل السفسطائيون على إخراجها إلى أرض الواقع عن طريق التوعية، تمكنوا من كشف الغطاء عن قوانين

الأوليغارشيين التي تخدم فقط مصلحتهم، وبالتالي فهذه القوانين ينبغي أن تخضع للتعديل مادام يشوبها نوع من الحيف لتحقيق المساواة بين الإنسان اليوناني وانه لا معنى للعبودية والرق.

هذه الحقيقة السوفسطائية لم تكن لترضي الأوليغارشيين لأنها ليست في مصلحتهم، كما أخرجت الديمقراطيين الذين التحموا مع الأوليغارشية ضد السوفسطائيين، وبالتالي تشويه أفكارهم والتنكيل بهم حتى اليوم.

سقراط: عاصر المرحلة السوفسطائية، لكنه لم يخلف لنا آثارا مكتوبة نتعرف بواسطتها عليه، لكن نستطيع التعرف عليه من خلال تلميذه أفلاطون الذي يعترف أنه قضى معه عدة سنوات ويقول عنه " أجمل من رأيت وأعدل من رأيت ".

يعرف عن سقراط كثرة الحركة وعدة الإستقرار في مكان واحد، كان عمله هو توليد الأفكار، فهو يقول : أنا أمي قابلة، فهي تولد النساء وأنا أولد الرجل" وأسلوب التوليد هذا، كان يسمى ب " المايوتيقا". كما عرف عنه أنه ورث عن والده حرفة نحث التماثيل. وكان يرى أن القيم الحضارية لا ينبغي أن تكون غيبية، بل ينبغي أن تكون إنسانية مصدرها العقل، وكانت كل الأفكار التي يتوصل إليها يضعها موضع النقد والتساؤل مؤكدا أنه " كعامة الناس الذين لا يعرفون شيئا، وما يميزه عنهم أنه يعرف أنه لا يعرف شيئا" ومعنى هذا أننا لا نملك حقائق مطلقة. لهذا كان سقراط لا يتعب من طرح الأسئلة وهذا أمر فيه نوع من الحيرة لذلك نجد يقول: "إن اللوم الذي يوجه إلي لوم عادل لأني إن كنت أحيّر الناس فإن بنفسى حيرة كبرى". وترتبط فلسفة سقراط بنظريته حول المعرفة، حيث كان يرى أن المعرفة لا تُلقن من شخص لآخر، بل تكون عن طريق الذات " أيها الإنسان اعرف نفسك بنفسك".

أفلاطون: ينتمي سقراط إلى أسرة أرستقراطية عريقة، تعرف على سقراط وأعجب به وبفلسفته، وظل مصاحبا له إلى أن حكم على سقراط بالإعدام سنة 399 ق م. أبدى أفلاطون رغبته في بناء مجتمع عادل من خلال محاورته " الجمهورية"، كما ميز في الوجود بين عالمين: عالم مثالي يتكون من أفكار مطلقة، وعالم مادي هو عالمنا المحسوس الوهمي المزيف. لذلك فالمعرفة عند أفلاطون ليست حسية، بل حدسية نصل إليها عن طريق الرؤية غير المباشرة وهي التي يسميها بالجدل. والجدل هنا يتحقق عبر الانتقال من المحسوس إلى المعقول، لأن المحسوس لا يمكن أن يزودنا إلا بمعارف ظنية.

أرسطو: ينحدر من أسرة أرستقراطية، التحق بأكاديمية أفلاطون، وهناك تعرف عليه، وكان أرسطو يقول بأنه يجب أستاذه لكنه يجب الحقيقة أكثر الشيء الذي دفعه إلى التصدي للفلسفة الأفلاطونية. وتتميز

الفلسفة الأرسطية بكونها فلسفة موسوعية، تتضمن إلى جانب الميتافيزيقا دراسات في الله والنفس والطبيعة وعلم الحياة والسياسة والشعر والمسرح والخطابة والمنطق.

الفلسفة الإسلامية:

قامت الفلسفة العربية الإسلامية بعد أفول نجم الفلسفة اليونانية ودخول أوروبا فترة القرون المظلمة، إذ تحول إشعاع الفكر من أوروبا إلى بلاد المشرق، وقد تزامن ذلك مع ميلاد الدين الإسلامي ونزول القرآن الكريم سنة 610 م، والذي استمد منه الفيلسوف المسلم خطوط فكره وقضاياه، إلى جانب الترجمات التي عمل الحكام العرب على تشجيعها خاصة ترجمة كتب الأمم التي سبقت العرب في المدنية ولا سيما اليونان والهند وفارس. من طب وهندسة وفلسفة بفروعها المختلفة من طبيعيات وإلهيات ومنطق ونفس وسياسة وأخلاق، ولم يكتف الفلاسفة المسلمون بالترجمة فحسب بل بحثوا في الكتب المترجمة وعملوا على شرحها، وكانوا في طريقتهم متأثرين متأثراً عظيماً بفلسفة أرسطو والأفلاطونية الحديثة. وأول من اشتهر من المسلمين بالفلسفة :

أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي: كان الكندي أول فيلسوف عربي مسلم، يعرف بـ "فيلسوف العرب". اشتغل في بداية حياته بالترجمة من اليونانية إلى العربية وبمراجعة ترجمات غيره. تأثر بالأفلاطونية المحدثة وبفلسفة أرسطو وبآرائه في المادة والصورة والزمان والمكان والحركة والعقل والنفس. مارس التأليف في علم الكلام على مذهب المعتزلة، و عالج موضوعات عديدة إلى جانب الفلسفة، كالطب والفلك والهندسة والموسيقى. انطلق الكندي ككل الفلاسفة المسلمين من إشكالية التوفيق بين العقل والنقل، من آثاره "إلهيات أرسطو"، و "الأدوية المركبة"، و"رسالة في الموسيقى".

أبو نصر الفارابي: يُعرف بالمعلم الثاني. ولد في مقاطعة فاراب من بلاد الترك سنة 261هـ، رحل إلى إيران فتعلّم اللغة الفارسية، وانتقلت به الأسفار إلى أن وصل إلى بغداد، فتعلّم فيها اللغة العربية، ودرس على أيدي كبار الأساتذة في مجال الفلسفة والمنطق وعلوم الطبيعة والرياضيات والموسيقى. تناول جميع كتب أرسطو، وسهر باستخراج معانيها، والوقوف على أغراضه فيها، وكان من أكبر فلاسفة المسلمين، ولم يكن منهم من بلغ رتبته في فنونه، هو أول من حمل المنطق الصوري اليوناني تاماً منظماً إلى العرب، وكذلك هو أول المسلمين الذين عنوا بعناية خاصة بقانون التناقض الذي يظهر به للعقل صدق قضية أو كذبها. كما حاول التوفيق بين الفلسفة والدين، من مؤلفاته : المدينة الفاضلة - تحصيل السعادة - كتاب الموسيقى الكبير ...

أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا: ملقب بالشيخ الرئيس، فيلسوف، طبيب وعالم، ومن عظام رجال الفكر في الإسلام ومن أشهر فلاسفة الشرق وأطبائه. غاية الفلسفة عنده معرفة الله، وهو يستعير من الفارابي برهان واجب الوجود لإثبات وجود الله ويفضله على برهان المحرك الأول لأرسطو. ترك ابن سينا مؤلفات متعدّدة شملت مختلف حقول المعرفة في عصره، وأهمها: الشفاء - النجاة - الإشارات والتنبيهات في الفلسفة - والقانون في الطب.

أبو الوليد محمد بن رشد: من أشهر فلاسفة الإسلام وأكثرهم أثرا في الفكر الأوربي والمسيحي، عاصر فترة من أرقى فترات الحضارة الإسلامية بالأندلس والمغرب الأقصى، زمن حكم دولة الموحدين، اشتغل ابن رشد بالقضاء وكان طبيبا في بلاط السلطان الموحيدي، لقب بالشارح لشروحه على كتب أرسطو التي ترجمها وزاد عليها التعليق، حاول ابن رشد التوفيق بين الدين والفلسفة معتبرا إياهما أختان شقيقتان، فالحقيقة واحدة لا تتجزأ وإذا كانت الشريعة حقا وداعية إلى النظر المؤدي إلى معرفة الحق، فالنظر البرهاني أيضا لا يؤدي إلى مخالفة ما ورد به الشرع، فالحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له.

نلاحظ أن كل الفلاسفة المسلمين الذين أوردناهم كنموذج للفلسفة العربية الإسلامية سواء بالشرق أو المغرب، كلهم يعالجون من بين ما وقفوا عنده، إشكال العلاقة بين الفلسفة والدين، فكل واحد عمل جاهدا على إثبات التوافق والانسجام بين الفلسفة والشريعة ونفي الصراع والتضاد بينهما، لأن الشرع يدعو إلى الفلسفة . من هنا نلمس أن اهتمام الفلسفة العربية الإسلامية انصب على مسئلة التوفيق بين الحكمة والشريعة بالأساس.

الفلسفة الحديثة:

قامت الفلسفة الحديثة على تأسيس تصورات جديدة مخالفة للتوجه الذي سارت عليه الفلسفة اليونانية ولا الفلسفة الإسلامية، وقد ساهم في ميلاد هذا النوع الجديد من التفكير الفلسفي، النهضة التي عرفتها أوروبا، وارتفاع الدعوات التحريرية من سلطة الكنيسة، مع أهمية استعمال العقل وتحقيق الأنوار. وقد خلفت هذه الثورة الفكرية الجديدة فلاسفة أنداد، ساهموا في بناء منهج يستند إلى مجموعة من القواعد العقلية (المنطقية والرياضية) تمكن الفلسفة، كعلم كلي، من اكتشاف معرفة يقينية لا يطأها الشك. ومن ابرز رواد الفلسفة الحديثة نذكر مثلا:

رينيه ديكارت: يعد ديكارت بحق أبو الفلسفة الحديثة، لأنه أول من استعمل العقل. عرفت فلسفته بعملية الشك التي قام بها من أجل الوصول إلى اليقين، وقد قدم حول ذلك مثال؛ أنه من أجل التعرف على

التفاح الفاسد و الصالح لا بد من إفراغ السلة بأكملها ثم يتم بعد ذلك ترتيبها بعد إزالة التفاح الفاسد. ومن جهة أخرى علينا لإفراغ أدمغتنا من كل الأفكار التي تعلمناها ثم إعادة ترتيبها من جديد بواسطة استعمالنا لهذا الشك المنهجي. وهو صاحب القولة الشهيرة " أنا أشك، أنا أفكر، إذن أنا موجود" ترك مجموعة من الكتب من أبرزها "مقال في المنهج" .

إذن الفلسفة الحديثة اهتمت بضرورة تأسيس طريقة جديدة تقوم على قواعد محددة لقيادة العقل وتعتمد على آليات لبناء المعرفة. ومن أبرز فلاسفة هذه الفترة، على جانب كل من ديكارت نجد اسبينوزا وكانط وهيغل وآخرون...

الفلسفة المعاصرة:

ظهرت الفلسفة المعاصرة كاستمرارية للفلسفة الحديثة في الحضارة الغربية، لكن بمعطيات ومنطلقات مخالفة ومختلفة، أحيانا جاءت كرد فعل على الفلسفة العقلانية التي ميزت الفلسفة الحديثة، إذ ظهرت تيارات ومدارس فلسفية مختلفة نذكر على سبيل المثال: الفلسفة الوجودية التي تلح بشدة على إبعاد العقل عن الهيمنة على الإنسان، وتدعو إلى مبدأ حرية الإنسان، بحيث أنه حر في اختياراته وفي نفس الوقت مسؤول عن هذا الاختيار. ومن أبرز رواد هذا الاتجاه الفلسفي مؤسسه الفيلسوف الدانماركي "سوريس كيركجارد" وغابرييل مارسيل و جون بول سارتر.

إلى جانب اهتمام الفلسفة المعاصرة بالإنسان، اهتمت أيضا بقضية العلاقة بين الفلسفة والعلم، باعتبار أن النظريات العلمية فانية، لكون تاريخ المعرفة العلمية ليس فقط تاريخ تراكم وتوسع، إنه أيضا تاريخ تحولات وقطائع وانتقالات من نظرية إلى أخرى، وبالتالي فحركة العلم ليست حركة في اتجاه امتلاك الحقيقة وتوسيع نطاقها، وإنما هي حركة ناجمة عن صراع بين بلوغ الحقيقة والصراع ضد الخطأ. إلى غير ذلك من القضايا التي اهتمت بها الفلسفة المعاصرة كالفيينومينولوجيا والوضعية المنطقية ومدرسة فرانكفورت.